فلسطين وبالروابط التي ظلت تشدهم الى آخر الشرائح المستقلة نسبياً في الشعب الفلسطيني والمتمثلة في أبناء غزة (خمسة من اعضاء اللجنة المركزية ولدوا في غزة أو لجأوا اليها في عام ١٩٤٨). وقد شاركوا مباشرة في مختلف نضالات غزة، كتظاهرات اول آذار (مارس) ١٩٥٥[٣٧] التي سُجن بسببها مناضل مثل محمد يوسف النجار لمدة سنتين، وفي العمليات الفدائية ضد اسرائيل (أبوجهاد). وعندما توجه العديد منهم إلى القاهرة، أسسوا اتحاد الطلاب الفلسطينيين، فخاضوا تجربة العمل في منظمة مستقلة للشعب الفلسطيني. لقد ثمّنوا فضائل القومية العربية من الطراز الناصري إلّا انهم تلمسوا، في الوقت عينه، حدودها (حتّى انهم تعرضوا للقمع على يدها). ثم لعبت حملة غزة والنضال ضد الاحتلال الاسرائيلي دوراً حاسماً في استكمال هذه التنشئة[٣٨]. لقد شاركوا، على هذا النحو أو ذاك، في المجابهة المباشرة الكبيرة بين الجماهير الفلسطينية واسرائيل، وهي الوحيدة من هذا المستوى في مرحلة ١٩٤٨ــ١٩٦٧. ولقد استخلصوا منها دروساً عدة، لعل أولها وأكثرها اهمية هو أن النضال يرتكز في الدرجة الأولى إلى الشعب الفلسطيني. أما الثاني فهو أن أعمال البلدان العربية، بما فيها مصر، إنما يمليها منطق الدولة وليس الفلسطينيون وقضيتهم، على حد تعبير أبو اياد.

أما قادة الجبهة الشعبية والجبهة الشعبية الديمقراطية فدخلوا في تجربة مغايرة جذرياً، وقد وفدوا في معظمهم من حركة القوميين العرب. ففي لبنان كما في الأردن قامت السياسة الرسمية على العمل لضرب الوعي الفلسطيني لدى اللاجئين؛ فالقمع الشديد والنزوع إلى ضم الفلسطينيين و«استيعابهم» في الأردن، حالت دون ان يخوضوا نضالات خاصة بهم. لقد انخرطت الجماهير الفلسطينية في النضالات العامة (التحرك ضد حلف بغداد، نضالات ١٩٥٦ ــ١٩٥٧ في الأردن، الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٥٨). وشكلت الأنظمة المذكورة عائقاً في طريق تحرير فلسطين (فالنظام الأردني مسؤول مباشرة عن «نكبة» ١٩٤٨)، وفي الصراع القائم في العالم العربي كان من الطبّيعي ان يقف فلسطينيّو لبنان والأردن الى جانب عبدالناصر. ولا شك ان حركة القوميين العرب كانت اكثر ميلاً إلى الفهم الناصري للقومية العربية لأنها كانت تضم نسبة مهمة من العرب غير الفلسطينيين، فضلاً عن الأقليات. واخيراً يمكن الاعتقاد بأن قياديي حركة القوميين العرب، بفعل كونهم غير فلسطينيين أو غير مولودين في فلسطين، انما يشدهم اليها رباط «ايديولوجي»؛ يتحسسون القضية بصفتها نكبة للأمة العربية اكثر من كونها خسارة مباشرة لهم. من هنا أيضاً تصميمهم على إعطاء الأولوية لحل «أزمة الوطن العربي».

هذه الملاحظات تتيح لنا الفهم الصحيح «للنهجين» اللذين قاما في الحركة الفلسطينية.

وملاحظة أخيرة لا بد منها، وتتعلق بالتلاحم الداخلي لكل من الفئتين. إذ من الواضح أن فريق حركة فتح يبدو اكثرتلاحماً واستقراراً (من بين اعضاء اللجنة المركزية العشرة في العام ١٩٦٩، ستة منهم حافظوا على مناصبهم حتى اليوم، أما الأربعة الآخرون فقد توفّوا). وهنا يكمن سبب أساسي لتفوق فتح على سائر التكتلات الفلسطينية[٣٩].